﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾﴾ [طه: 108]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عـلاقـةُ بـيـانِ اسـتـواء الأرض باتِّباعِ الدّاعي والـخـشـوعِ لـلـرَّحـمـن يـومَ القيامة

بعد أن ذكر استواءَ أرضِ المحشر، وانتفاءَ العِوج فيها؛ أتبعهُ ببيان كيفيَّة حشر النّاس إلى محشرهم، فبيَّن ﷻ أحوال النّاس في ذلك اليوم بأنَّهم ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾[1]، وحينها "يتَّبع النّاس بعد قيامهم من قبورهم دعوةَ الدّاعي إلى المحشر مستسلمين، لا يستطيع أحد منهم أنْ يعدل عنه يمينًا ولا شمالًا، وتخشع الأصوات بالسُّكون والرَّهبة لعظمة الرَّحمن، فلا يُسمَع إلّا ما خفي من الأصوات".

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَخَشَعَتِ﴾: (خشع) أصلٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ: خَشَعَ؛ إذا تَطامَنَ، وطَأطَأ رَأسَهُ، يَخشَعُ خُشُوعًا، والخُشُوع في الصَّوتِ والبَصَرِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ [القلم: 43][2]، واختَشَع وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِه نَحوَ الأرض، وغَضَّه، وخفَضَ صَوْتَهُ، وخشَع بصرُه: انكَسَرَ، واختشعَ؛ إذا طأطأ صَدْرَه وتَواضَعَ[3]، والخُشُوع: الضَّراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضَّراعة أكثر ما تُستعمل فيما يوجد في القلب[4]، والمراد به في الآية: خفيت لمهابته تعالى وشدة هول المطلع.

2) ﴿هَمْسًا﴾: (همس) أصلٌ يَدُلُّ على خَفاءِ صَوْتٍ وحِسٍّ[5]،

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 153.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(3) ابن منظور، اللّسان: (خشع).
(4) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همس).

والهَمس: الخَفيُّ مِنَ الصَّوْتِ والوَطءِ والأكل، وقَدْ هَمَسُوا الكَلامَ هَمسًا، وفي التَّنْزيلِ: ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، أي: خَفْقَ الأقدام على الأرض، ويُقالُ: اهمِسْ وصَهْ، أي: امشِ خَفيًّا، واسْكُتْ، والهَمس: الكَلامُ الخَفيُّ لا يَكادُ يُفْهَمُ[1]، والمراد به في الآية الكريمة: أخفى ما يكون من الأصوات، وأخفى شيء من أصوات الأقدام[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

اتِّباعُ الصَّيحةِ وتهامسُ النّاس من أحوال أهل المحشر يوم القيامة

يخبرُ النَّظمُ الكريم أنَّ "في هذا اليوم الَّذي تُنسَفُ فيه الجبالُ، وتصير الأرض قاعًا صفصفًا، يقوم النّاس من قبورهم، ويتَّبعون من يناديهم للحساب والجزاء، دون أن يحيدوا عن هذا المنادى، أو أنْ يملكوا مخالفته أو عصيانه، بل الجميع يسمع دعاءه، ويستجيب لأمره، كما قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر: 6 - 8]، وخفتتْ، وسكنتِ الأصواتُ كلُّها هيبةً وخوفًا من الرَّحمن ﷻ، فلا تسمع - أيُّها المخاطَبُ - في هذا اليوم الهائل الشَّديد إلّا هَمسًا، أي: إلّا صوتًا خفيًّا خافتًا"[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإيجازِ في لفظ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

لا مندوحةَ في الحشر من اتِّباع الدّاعي والخشوع للرَّحمن

أوجز النَّظمُ الجليل بحذف المضاف إليه، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾، أي: في ذلك اليوم العصيب، يتَّبع النّاسُ داعيَ الله الَّذي يدعوهم لأرض المحشر، يأتونه سراعًا، لا يزيغون عنه، ولا ينحرفون، والتَّقدير: (يوم إذ نُسفتِ الجبالُ)، فالظَّرفُ مضاف إلى وقت النَّسْفِ[4]، وهذا إيجازٌ بليغ بالحذف المعلوم من السّياق.

(1) ابن منظور، اللّسان: (همس).
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 152 - 153.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 42.

سرُّ تقديم الظَّرفِ على عامله:

الاهتمامُ بيوم القيامة أهمُّ مِنَ الأحداث الواقعة فيه

قدَّم النَّظم الجليلُ الظَّرفَ على عامله، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾، والأصل في التَّركيب أن يقال: (يتَّبعون الدّاعي يومئذٍ)؛ وذلك للاهتمام بذلك اليوم العظيم، فيكون الظَّرف بهذا التَّقديم قائمًا مقامَ العطفِ في الوصل، والمعنى: أنَّهم يتَّبعون الدّاعي يوم ينسف ربُّك الجبال[1].

إيثارُ الفعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ مادَّة وصيغةً:

في المحشر الآخرةِ ينقاد الكلُّ للدّاعي، وينفِّذون أوامره

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الاتِّباع بصيغة الافتعال، في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ أهلَ المحشر يتَّبعونه بغاية الجهد والجدِّ[2]، ومفاد ذلك أنَّه في هذا اليوم الَّذي تُطوى فيه صفحةُ الدُّنيا بما فيها، ومن فيها، وتُنسف فيه الجبالُ، وتُبدَّل الأرضُ غيرَ الأرض؛ لتصبح قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، يقوم النّاس لربِّ العالمين من قبورهم الَّتي كانوا فيها ميِّتين أشبه بالرّاقدين، ويتَّبعون من يناديهم للحساب والجزاء دون أن يحيدوا عن هذا المنادي، أو أن يملكوا مخالفته أو عصيانه، بل الجميع يسمع دعاءه، وينصاع لمراده، ويستجيب لأمره بلا أدنى تأبٍّ أو عصيان[3].

نكتةُ إيثار لفظ ﴿ٱلدَّاعِيَ﴾ وبيانه:

لما بيَّن أنَّ البعثَ والحشر حقٌّ؛ أتى بالداعي معرَّفًا

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن القائم بأمر النَّفخ لبعثِ النّاس وحشرِهم إلى المحشر بلفظ الدّاعي في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾؛ لأنَّه من المعلوم أنَّ مَن يقوم بذلك هو الملك إسرافيل عليه السلام، فهو يدعو النّاس بأمر الله تعالى وإذنه لتعودَ الأجساد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 346.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 9/ 153.

والأرواح فيها، وتهطع إلى المكان المدعو إليه[1]، ولفظُ الدَّعوة يدلُّ على ارتفاع الصَّوت لجلب المدعوّين إلى مكان مُعدٍّ لهم، فهم يُقبلون عليه لا ينفكّون عن متابعتهِ، وقيل: الداعي الرسولُ، أي: يَتَّبع كلُّ قوم رسولَهُم[2].

نكتةُ مراعاةِ النَّظيرِ في استعمال (العِوَج):

كـلُّ منتظمٌ فلا عـوج في المكان ولا عـــوج في المسير

أورد النَّظمُ الجليل تعبيرين متماثلين في نفي العِوج، فقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، وقد قال قبل ذلك: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾، وهذا يسمّى مراعاةَ النَّظير[3]، وذلك أنَّه تعالى كما جعل الأرض يومئذٍ غيرَ معوجَّة ولا ناتئة، فإنَّه كذلك جعل سيرَ النّاس عليها لا عوج فيه ولا مراوغة[4].

دلالةُ اللّام في ﴿لَهُۥ﴾ وعودُ الضَّميرِ:

وجـودُ الـدّاعـي ضامنٌ لاستقامة مسيرهم

عبَّرَ النَّظمُ باللّام الدّالَّة على التَّعليل في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾، فانتفى العِوج عن مسيرهم، بسبب هذا الدّاعي، "أي: لا يروغ المدعوون في سيرهم، لأجل الدّاعي، بل يقصدون متَّجهين إلى صوبه"[5].

دلالةُ الواو في ﴿وَخَشَعَتِ﴾:

بخشوع النّاسِ تخشعُ أصواتُهم

عطف النَّظمُ الجليل الجملة، في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾[6]، والغرضُ من العطف، أنَّه لمّا "أخبر بخشوعهم في الحديث والانقياد للدَّعوة؛ أخبرَ بخشوع غير

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 309.
(3) من أنواع مراعاة النَّظير "ما يسمّيه بعضهم: تشابه الأطراف، وهو أن يختمَ الكلامَ بما يناسب ابتداءَهُ في المعنى، نحو: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: 103]"، يُنظر: عصام، الأطول: 1/ 99.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 309.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 309.
(6) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 8/ 425.

ذلك من الأصوات الَّتي جرتِ العادة بكونها عن الاجتماع"[1]، وذلك أنَّ خشوع الصَّوتِ تَبَعٌ لخشوع صاحبه.

بلاغةُ المجازِ في نسبة الخشوع إلى الأصوات:

عظُمَ الخطبُ حتّى خشع الصَّوتُ نفسه وهو من بليغ البيان

أسند النَّظمُ الجليل الخشوع إلى الأصوات في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، والأصوات لا تخشع فإنَّما يخشع أهلها، فأسند الخشوعَ إلى الأصوات، على طريقة المجاز العقليِّ[2]، وإنَّما أسند الخشوعَ إلى الأصوات دون أصحابها تعبيرًا عن هول المقام، بحيث إنَّ الصّوتَ بنفسه صار خاشعًا، تعبيرًا عن قوَّة دواعي الخشوع.

سرُّ إيثار اسم الله (الرَّحْمَنِ):

تزاحُمُ الشَّدائدِ المتانِ لا يغلبُ رحمةَ الرَّحمن

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن المولى تعالى بلفظ الرَّحمنِ في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾، ترقيقًا للقلوب من هول ذلك المحشرِ، وإعلامًا بأنَّ الله تعالى في أشدِّ ساعات الشِّدَّة على النّاس رحيمٌ بهم، فهو الرَّحمن "الَّذي عمَّت نعمُهُ، فيُرجى كرمُهُ، وتُخشى نقمُهُ"[3].

دلالةُ الفاءِ في قولهِ: ﴿فَلَا﴾:

منتهى الخشوعِ في المحشرِ ألّا تسمعَ الأصوات إلّا همسًا

أدخل النَّظمُ الجليل الفاءَ على الجملة المنفيَّةِ، في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ للدَّلالةِ على السَّببيَّة، أي: يتسبَّب عن ضعف الأصوات وانخفاضها، أنَّك لا تسمع إلّا أخفى ما يكون من الأصوات، وهو الهمس[4].

فائدةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع المنفي:

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ، في قوله تعالى:

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 310.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرَر: 12/ 347.

﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ للدَّلالةِ على دوام انتفاء سماع غير الهمس، وهذا يشير إلى دوام شدَّةِ ذلك اليوم وهيبته، فلا ينقطع خوفُ النّاس فيه، ودنوُّ أصواتهم.

هـــولُ يـــوم القـيـامـة مع طوله مستمرٌّ لا ينقطع

سرُّ استثناء ﴿هَمۡسٗا﴾ في السّياق:

استثنى النَّظمُ الجليل الهمسَ مِن السَّماع في قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾؛ لأنَّ النّاس في المحشر ليسوا صامتين صمتًا مطبقًا، بل هم يتكلَّمون، ويتساءلون فيما بينهم، فالكلام ليس ممنوعًا عنهم في ذلك اليوم، غير أنَّهم لشدَّة هلعهم وخوفِهم لا يتكلَّمون إلّا بالهمس الَّذي لا يكاد يُسمع، وهذا تعبير عن شدَّة خوفِهم من الأهوال العظيمة في ذلك اليوم.

انخلعَتِ القلوبُ مـن الأهـــوال، فـاســتــحـال حـديـثُ الـنّاس همسًا

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشوع والخضوع:

(خَشَعَ) أصْلٌ يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ: خَشَعَ؛ إذا تَطامَنَ، وطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا[1]، واخْتَشَع: إذا طأْطأ صَدْرَهُ، وتَواضَعَ، وتَخَشَّعَ: رَمَى بِبَصَرِه نَحْوَ الأرض، وغَضَّه، وخفَضَ صَوْتَهُ، وخشَع بصرُه: انْكَسَرَ[2]، والخُشُوع: الضَّراعة، وأكثر ما يُستعمل الخشوع فيما يوجد على الجوارح، والضَّراعة أكثر ما تُستعمل فيما يوجد في القلب[3]، أمّا الخضوع؛ فأصله يدلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيْءِ، وهُوَ الذُّلُّ والاِسْتِخْذاءُ[4]، فعبَّر في الآية بالخشوع تعبيرًا عن خفض الأصوات، وليس المرادُ بيانَ ذُلِّها.

الخشوعُ تطامنٌ بـانـكـسـار، والـخـضـوع ذلٌّ وصغارٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).
(2) ابن منظور، اللّسان: (خشع).
(3) الرّاغب، المفردات: (خشع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خضع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32 : المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-74-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»